٦

ميزان الجمال

كان طريف مغرماً بالحياة جدها ، ولهوها ، وكان يجد فى أحضان الطبيعة ، والتجول بين الربى والمروج ، وعلى ضفاف الجداول والبحيرات ، من الغبطة والابتهاج ما يثير عواطفه الفياضة ، فيحس أنه يذوب شيئاً فشيئاً كالثلج تنصبّ عليه أشعة الشمس.

وحين هبطنا الحى اللاتينى فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٣٢ وسجل اسمه فى السنة الثالثة من معهد الحقوق ، أخذ يختلف الى حديقة « اللوكسمبورغ » و « منصورى » وغابات بولونيا ، وڤانسان ، وسواها من الحدائق والغابات المنتشرة فى قلب العاصمة الفرنسية ، وضواحيها تكتنفه غالبا عن اليمين وعن الشمال غيد يقطفن « دويكة الجبل » « وزنبقة الشاطىء » ويقدمنها اليه خصلا عاطفات باسمات .

o.b.e.i.k.a.n.d.i.com

واني لجالس معه ضحى يوم من أيام الربيع ، فى حديقة اللوكسمبورغ ، أمام فوارة متهامسة الرشاش ، منسجمة الأنغام ، إذ أقبل حيالنا سرب من الطالبات يتحدثن ويمرحن فى فتنة الصبا والجمال ، فهزنى منظرهن الفاتن وأثار البهجة فى قلبى ، وكل جوارحى فعز على أن لا يشاطرنى طريف هذه اللذة الماثلة ، فقلت له متوجعا :

— ما أشقاك يا طريف ! وما أبلغ حرمانك ! تمر بك النعمة وأنت لا تحسها ، ويتدفق من حولك الجمال ولا تدرى به ، حتى لكأنك تمثال ناطق ، وكأن الأوانس السانحات بين الخمائل الفينانة ، وحقول الرياحين المفترة ، لا يرمين الناظر اليهن « بأسهم ريشها الهدب تشق القلوب قبل الجلود » .

فابتسم فى وجهى ابتسامة عريضة وقال :

— ما أدراك أنى لا أحس جمالهن ، ولا تهزنى فتنتهن ، لعلك تحسب الشعراء الذين يفوقون البشر عمقا فى إحساس الجمال ، والاستمتاع بمفاتن الحياة إنما يدركون ذلك بعيونهم .

لعلك تحسب القيسين ، وجميل بثينة وأشباههم من المدلهين المفتونين ،والحيارى المعمودين إنما عبدوا من عبدوا بعيونهم ، ولكن مالى ولهذه الفلسفة التى إن استرسلت فيها أسترسل فى حديث كالحب ليس له نهاية فلا كفكف من طنونك آخذاً بتوضيح بعض الجمال ،خشية أن أضلك فى حديثى .

إن المرأة لا تكون فى عرف مواطنينا ، ولا أستبعد أن تكون فى عرفك أيضا جميلة ، إلا إذا توفرت فيها الشروط المسجلة فى أذهان العجائز والشيوخ ، وكانت كما يقولون « بيضاء اللوز لها عينان كالفنجان وفم كخاتم سليمان وأسنان كاللؤلؤة ووجه مدور على البيكار »وإذا قدر لامرأة إن اجتمعت فيها هذه الصفات عدا بياض البشر قيل : « إنها حلوة ، لكن سمراء ».

أما أنا فأستهجن هذا التعريف الذى يشوه وجه الجمال ويمسخ حقيقته واعتقد أن المرأة الجميلة هى التى إن وقع عليها بصرك ، مغنطت قلبك بأسرع من لمح البصر ،

وأفعمته غبطة ، وراحت تداعب خيالك . وتطير بك الى عالم الشعر والأحلام . وظنى أن الموجة الكهربائية التى تحدث في النفس هذا الأثر العجيب ، إنما تنبعث عن اعتدال أعضاء المرأة ، وتناسب أجزائها ، وإشراق لونها ، وانسجام حركاتها .

والمرأة مهما بلغت من الفتنة ، والسحر ، والجمال ، فان هى إلا دمية لا هناءة بها ، ولا شقاء ، مالم تسلط عليها حرارة قلبك ، وتضمها بأجنحة شعورك ، وخيالك ، فتطيران معا وقد ألهتها ، كما ألّه الوثنى الصنم ، هائمين فى عالم الأرواح ، يجمع قلبيكما الهوى المتبادل ، وتصهر كيانكما العواطف المستعرة ، فتذوبان ، وتتلاشيان بنار الوهم ، ويقين النعيم ، فالبصير وان رأى جمال المرأة بعينيه ، فانه لا يدرك هذا الجمال ولا يستمتع به إلا بقلبه ، ذلك بأن القلب هو وحده الشاعر المستمتع ، أما العين فليست لو تأملت ، إلا جارحة مستكشفة يستعيض عنها فاقدها ، جارحة أخرى ، ويهتدى إلى الجمال بأذنيه .

تتكلم الفتاة ، أو تضحك ، أو تبتسم ، أو تمشي ، بقرب الأعمى فيعلم أن هنالك كائنا من الجنس الناعم ، فاذا كان مشغول البال منصرف الذهن الى أمر من الأمور لم ينتبه الى ما أودعها الله من خصائص ، وإلا ففي مقدوره أن يحس جمالها ، ويتبين بما ينبعث عن شفتيها من صوت ، حظها من الفتنة والجاذبية والأنوثة . وحذار ثم حذار من أن تتوهم أن الهادى إلى جمال المرأة جمال صوتها ، فكم فتاة حسنت صوتا وعذبت حديثا لا تحرك قلبا ، ولا تهز شعوراً ، فالذى ينبىء الأعمى عن جمال المرأة ، ويدله عليه ليس الصوت نفسه ، بل ما يحمله هذا الصوت في نبضاته من نبرات مختلفة الجرس والأنغام . وما أخالك إلا مستغربا حديثى ، ولكن تيقن ، أن المرأة كالزهرة يتشع منها دائما معنى كالهالة ، يحمل أطيافاً جذابة أو أشباحاً منفرة ، فأنا أستنشق جمال المرأة من هذه الأطياف المشرقة الوضاءة ، وأحسه كما تحسه أنت ، بل كما يحسه أرق المبصرين شعوراً ، وألطفهم ذوقاً ، وأدقهم حسا .

قلت : لكنك لا تميز شقر الغاديات من سمرهن !

قال : ما خبرت ذلك ولا عودته حسى ، وإن قيل لى أخيراً أن فى العالم الجديد من العمى من يدرسون خبرة الألوان باللمس ، ولكن ماذا يهمنى إن لم أميز شقر الغيد من سمرهن ما دام جوهر الجمال واحداً ، وما دامت الغانية الحسناء فتاة ساحرة ، تثب الى قلبى وتشيع فيه النشوة ، والسحر ، والنعمى .

قلت : وهل تحس دمامة المرأة وتنفر منها كما أنفر؟

قال : ما أغباك يا صديقى ! وما أضيق تفكيرك ! هل رأيت فى حياتك إنساناً واحداً يحب الحق من غير أن يكره الباطل ؟ ويهوى العدل دون أن يمقت الظلم ؟ أم هل رأيت من يلتذ بحلاوة الشهد ولا يتألم لمرارة العلقم ؟ أليس القلب كالعقل والوجدان ميزانا يزن القبح والجمال كما يزن الوجدان الخير والشر ؟ والعقل الحق والباطل ؟

وما أن نطق طريف بهذه الكلمة حتى وافتنا رفيقة من رفيقاتنا الحسان ، فى معهد الحقوق ، تتلطف الينا

متحدثة ضاحكة فاحتفينا بها ، وانبرى طريف يداعبها بظرفه وتكلفه مكبراً ذوقها النادر فى اختيار هندامها ، وما أكسبها مجولها الجميل من فتنة ورشاقة .

فقلت له بعد أن ودعتنا وانصرفت ، ياعجبا ! أتدرك أزياء النساء يا طريف ؟

قال : أيدهشك ذلك يا صديقى ؟ وقد علمت أنى أستشف جمالهن من نبرات أصواتهن وأنغامها ، كما أتبينه أحيانا من وقع أقدامهن ، ألا تعلم أن المرأة المرتدية ثيابا أنيقة تتثنى فى مشيتها تثنى الزنبقة فى عبث الصبا اللعوب ، وتسترعى بعزف خطاها ووسوسة حلاها الأبصار والأسماع ، يقظة دائما لاغراء الرجل ، وجذبه إلى شرك ما أفتنه من شرك !

ولما قال طريف هـــذه الكلمة كانت ساعة حديقة اللوكسمبورغ تعلن الثانيـة عشرة . فأسرعنا إلى المطعم العربى الجديد ، حذراً من أن يحرمنا الازدحام فيه المقاعد .